افنان القاسم

يوميات فدائي في الارض المحتلة

يوميات فدائي .. .

الخميس في ١٩ تموز ١٩٧٠

انا الان في السجن . بعد ان نفذنا العملية مساء يوم الجمعة ، حتى يومين اثنين ، وانا طريح الفراش في المستشفى . اصبت بجرح غائر في ظهري نتيجة لانهيار السقف ، واخترقت رصاصة كتفي الايمن ، ومع ذلك فقد نجوت من الموت باعجوبة . بعد ان عالجوني (شبه تماما) ، طرحوني بين القضبان ، وبين تارة واخرى يأخذونني الى حجرة « التاديب » ، وهناك ، يشرعون في تعذيبي . لقد عالجوني لهذا السبب ، ليعذبوني .

لن استرسل اليوم في الحديث عن الاستنطاق والمحققين ، ولا عن حالتنا في السجن ، ولن اصف زنزانتي او حالي ، بل سأحاول الاسراع بالقدر الممكن رسم صورة لما جرى معنا يوم التنفيذ ، اي قبل دخولي المستشفى ، لانني اتوقع ان يأتي احدهم .

على الساعة الثانية عشرة ظهرا ، توقفت سيارة الاسعاف امام المركز الصحي . نزلت بعجلة ، وانا اضع على رأسي قبعة امريكية ، وتوجهت صوب جندي الحراسة بطريقة هجوميه ليست مباشرة ، وهو ينظر نحوي مأخوذا . فتحت محفظتي عن هوية مزورة ، وانا اقول بالعبرية : « وكيل انضباط سري ، مكلف بحادثة خطيرة .» وصفقت دفتي محفظتي ، ودسستها في جيبي كصاحب للامر وناهيه . عندما التفت ، رايت هناك اميرة في ثوب الممرضة ، وسالم على صدره مئزر ابيض يصل الركبتين ، قد جذب الحمالة . ثم رايت الرئيس ـ وانا اتقدم لمساعدتهم ـ مضمدا في كل طرف من جسمه على التقريب ، وقد رفعت قدمه المومياية البيضاء لكثرة ما التفت ، بالقطن والشاش على حامل . عين واحدة تبرز من وجهه ، وقد عملت اللفائف انتفاخا ضخما في جانبه الايمن وعند فكه ، بينما شوهت هذا البياض العذري ، لطخات عفوية من مادة اليود والميركروكروم ، ودماء اسودت على صدره .

نقلناه ، واميرة تحافظ على قدمه المعلقة الا تسقط . وعندما صعدت اول درجة ، اقترب مني جندي الحراسة مبالغا اهتمامه : « هل من عون استطيع ان اقدمه لكم يا سيدي ؟ » اجبته بلهجة جافة وسريعة كي اقطع فرصة التفكير : « لا ، اذهب مكانك يا جندي ، اذا احتجت اليك بعثت في طلبك » دوما بالعبرية ـ فانكفأ الجندي ، وسارع ليزرع نفسه قرب الباب .ما ان دلفنا للداخل حتى كانت سيارة الاسعاف قد ذهبت . ونحن على الدرجات ، جاء احدهم يهبط نحونا ، وهو يهمس : « تأخرتم » عرفت انه من جماعتنا. فقال سالم : « بعض الوقت » « لم يبدلوا جندي الحراسة على الثانية عشرة كالعادة » .. ولمعت اسنانه على الرغم من كتمه لسروره : « من حظنا !» وجاء الي ، اذ كنت من الاسفل بينما نصعد الدرج ، والثقل كله ملقى علي . ساعدني في الحمل ، فخف العبء قليلا . واخذنا نصعد بتؤدة حتى الطابق الثالث . وانا الاحظ انه لا يوجد هناك ممرضون ، ولا اي موظف ! دخلنا حجرة الرجل ، واقفلها بالمفتاح ، فنهض الرئيس على التو وراح ينزع عن وجهه الضماد ، واميرة تساعده ، وسالم يفك الرباط عن قدميه . كان الرجل قد وقف قرب النافذة ، رفع ستارها ، وقال لنا بصوت متحسب : « ذهب الشاهد ، اتت سيارة عسكرية ، ركبها جندي الحراسة ، وحل مكانه اخر » وتنفس الرئيس . اطلقت سراح يده ، فضربني على كتفي مبتهجا وهو يقول : « لقد احسنت الدور » واضطر ان ينهض نصف نهضة ، ليعطي الفرصة لسالم كي يسحب السلاح الرشاش المدفون داخل الضماد حول ساقه . تلقفه الرجل على يده ، وراح يداعبه باصابع خبيرة ، واخرج سالم رشاشا اخر من اسفل الساق الاخرى . كنت قد انهيت انا واميرة فك صدره ، ثم قفز .. واصبح حرا .

وهو يفرك عن جبينه اثار اليود ، فتحنا ظهر الحمالة وبدانا باخراج الذخيرة ، وكانت هناك ثلاث بنادق . ما لبث الرئيس ان اوقفنا : « دعوا كل شيء في مكانه ريثما يحين الوقت » والتفت الى ساعته « لدينا ساعات طويلة نقطعها » . راح سالم يبتسم وهو يردد : « خطوة اولى ، خطوة اولى ناجحة » تاملتني اميرة بتقدير وقالت بلهجة فخورة : « ان موسى شجاع ، جريء . كادت تخونني اعصابي عندما نفرت في وجه الجندي وانسل عائدا الى وقفته ، وكدت انفجر ضحكا على صورة وجهه الميكانيكية ، لكني استطعت ان اتدارك ذاتي » وكان الرئيس يقول للرجل : « الم يصدقنا احد ونحن نصعد ؟ » « لا احد ، اعتقد ان لا احد » والتفت نحوي . قلت: « المركز خال ! » ابتسم الرئيس بهدوء ابتسامة تعني انه كسب اول ورقة . قال : « اليوم الجمعة ، وهو نهار عطلة ، ولا يوجد سوى مركز الاسعاف الذي في الطابق الاول .» وتوجه صوب النافذة ، ولمس الستارة المسدلة التي من قماش الخيم ، وهو يقول : « وفوق هذا ان معظم مراكز الاسعاف اليوم مقفولة ، فقط هنا ،

والمستشفى الوطني ، ومستشفى الجيش في رفيديا .. لقد انطوت عليهم الحيلة . » وهو يبتسم باستمرار : « ظننا الجندي من هذه النواحي . احسنت يا موسى ! ».

كان سالم يحتضن السلاح ، واميرة تثبت على رأسها (ركاب) الممرضات بمشبك من الوراء .

جميلة وهي تتفتح في ثوب الرحمة ! وكان الرجل قد اقترب من الرئيس: «ثلاث مصفحات ،واحدة كبيرة ،وعشرة من الجنود . بناية السجن في الوجه المقابل . » اردت بدوري ان اشاهد . هناك كتلة اخرى الى اليسار ، تعمل زاوية مع الطريق ، فاتجهت صوبها ثنيت طرف الستارة ، ونظرت . الذي قاله صحيح . وكانت بناية السجن قلعة عتيقة ، تربض تماماً في الوجه المقابل على الطريق . بينما البناية التي نحن فيها تدخل بضعة امتار في ارض ليست مزروعة ، محاطة بسور حجري . لمحت احد الجنود وهو يهبط درجات السجن العريضة حتى وصل قرب من يجلس في جوف المصفحة ، فكان من هذا ان نهض ، وبعد ان نادى على آخر ليحل محله ، سار جنباً مع من اتى في طلبه ، ودخلا من باب صغير في البوابة ذات القضبان الضخمة .

انطلقت عيناي تتسلقان السور ، وعلى ناحية اليمين كان طريق رملي يصعد الى اعلى ، واستطعت ان اشاهد فوق الهضبة الترابية المستنبت الزراعي . سمعت الرئيس يقول : « الرفاق في المستنبت الزراعي لم يأخذوا امكنتهم بعد .» التفتنا نحوه وهو يتقدم الى وسط الحجرة . « سيتسلقون جبل جرزيم ، ثم يشقون طريقاً عابراً في (الطور) ، حيث يقومون بدورة خلفية ، وقبل ان يصلوا المستنبت يكونوا قد جلبوا معهم الاسلحة والذخيرة من غار هناك » اضاف : « ليس هناك خطر كبير لاحتلال المستنبت ، فهو مكان مهمل وغير محروس ، لكن هذا لا يعني ان نضع يدنا في ماء بارد ، فلربما حصلت مصاعب . » كانت اميرة تسوي من ياقة ثوب مطرز بالورد الاحمر ، لفلاحة من قرية (جفنا) رمته على ذراعها ، فقلت لها وانا ابتسم : « الذي اتمناه ان اشاهدك في ثوب مثل هذا ، ستكونين حقاً جميلة» . راحت تضحك وسالم يقول: « هي في الحقيقة جميلة دوماً ، لكن الثوب الذي سيزداد جمالاً !» تخضبت وجنتاها والرئيس يقول : « انها تعود للاصل » في رائحته عرق التربة » . وحل صمت طويل . جلست انا وسالم على الارض، والرجل فوق المكتب ، واميرة على كرسي ، والرئيس يقف خلفالستار. رآني سالم وانا ادفع كراس مذكراتي في حزامي الداخلي ، وسألني ما هذا ؟ قلت له : « كتاب سأظفر بقراءته (فيما بعد) ببعض التسلية » بعدها ، سأل سالم: « هل مع احدكم ساعة ؟ » فاجبته: « الواحدة والربع » . قال لي وقد اخذه التفكير :

ـ تركتها لامي ، فالمرء لا يعلم . (وهو يقصد ساعته)

طوى يده على السلاح الذي في حضنه ، وغاب في صمته .

« تركتها لامي » . كانت تصلني انفاسه حارة وقوية ، لكنه بقي غائباً في صمته . ان امه هناك ، وها هو يترك ساعته لامه كي تنصت الى الدقات . واذا ما قتلوه،ستحدث نفسها وتقول : يا لكم يكذبون ! ان ابني لم يمت ، فها انذا استمع الى دقات قلبه ! ويتحول بي التفكير اليها ، فانظر نحوها، نحو اميرة ، فاراها في شغل عني ! كانت تحلق ايضا هناك ، في الخارج ، كالنورس الباحث عن جناحيه »

هكذا اميرة ، وهكذا انا ،وهكذا الرجل الاخر الذي عرفني باسمه قائلاً : « انا الملك فؤاد ! » وضحك بدعابة ، ثم حذفكلمة الملك ، ليصبح له وجه قاس ، كزّت شفتاه ، وقست تعابيره ،ونبر: « ان الملوك اذا دخلوا قرية اهلكوها .. » مشيراً بيده ناحية الشرق . ما ابث ان ارتخى على معصمي لحم الوقت ، وتهدل ، وارتخت افكاري . لم يبق لي سوى ان انتظر . وكنت اشد شعوري بالانتظار ، كي يخلص . لكنما كان يفاجئني شعور آخر ، شعور من يقف على عتبة انتظاره ، فتباغته معركة .

كانوا هنا كلهم ، وكانوا مثلي هنا يفكرون كلهم ، احس بانفاسهم تسري في بدني ، احس بشعوري من خلال شعورهم . كنا معاً ملتحمين ، مع انه تنفصل عنا مجموعة . كنا نحن المجموعة ، وفي ذات الوقت ، كانت المجموعة لا تتعدى شخصاً واحداً . كنا ننظر الى السلاح ، وفي عيوننا وردات بكل الالوان . انني اعيش هذه اللحظات وفي ذات الوقت اعيش لحظات التنفيذ ، وفي ذات الوقت اقفز في الحديقة . وابقى انتظر ، انتظر ، ولم تهاجمني رعشةالبرد كالعادة .

(اسمع احدهم يقترب ، سأخبيء مذكراتي تحت فراش القش، على ان أعود بعد قليل) .

* * *

السبت في ١١ تموز ١٩٧٠.

عفوكم يا ارواح النور ! كلماتي التي هي قناديلكم قد انطفأت طوال يومين . نعم حجرة « التأديب » ! انهم يرفضون تسميتها حجرة التعذيب . فهذا حسب زعمهم يتنافى مع مجرى « عدالتهم » من اجل ان يكنسوا الضباب ، فتشرق شمسها على شعبهم « المختار »! ولانهم انسانيون بمعيار يتضاعف او يزداد في ضعفه لمرات ثلاث عن باقي الانسانيات ، وعلى الخصوص مثلما قال لي ضابط التحقيق: انسانيات الامم الراقية ! المتقدمة ! وضرب لي مثلا : امريكا ! قال لي : ان انسانية امريكا بالنسبة لانسانيتنا تعتبر دولة متخلفة من عصر الغاب . ولم يضف على هذه الكلمات حرفا .

حقا ، حقا ! انني اعترف لهم ! فمثلا بالامس ما الذي فعلوه ؟ فقط ، قذفوني في برميل ماء شديد السخونة ، حتى استوى لحمي. كان بالامكان اذا لمستني ثلاثة اصابع ناعمة لطفل ان تنزع مني قطعة لحم ، حتى كلمة (تنزع) هذه ممكن ان تكون شديدة ، ان تسحب بكل بساطة ، امشاط الاصابع ، وعظم الرسغ والزند ، وبنفضة صغيرة ، يتك لحمي .

ثم عادوا وشدوا لي لحمي ، رموني في ماء فاتر ، ثم بارد ، جداً حيث الماء جليد .

وبعدها .. استنطقوني ، السؤال دوما واحد : لماذا انت فدائي؟ ومن هم الفدائيون الذين تعرفهم ؟

اردت ان اجيبهم لماذا انا فدائي ، اقسم بالله العظيم ، ولكن لساني كان نصفه يسقط في حلقي ، ويسد مجرى النفس ، فلم استطع النطق .وبالامس سلطوا تيار الكهرباء على عضوي التناسلي، اما اليوم فقد فقأوني .

لهذا انا طريح منذ يومين ، وارى انه ليس باستطاعتي اكمال كتابة قصة « عمليتنا الماضية » . هذه الليلة ، احس بانحطاط ،بل بانتهاك ، وقد سقط القلم لمرات ، ووقف قلبي لمرات ، واستندت بذقني على حافة السرير لمرات ، وانعطف عليّ رفيقي الجديد في الزنزانة ورفعني لمرات ، وكان لا يجد صعوبة بذلك ، لاني خسرت صحتي وقواي ، وما انا سوى هذه الكتلة من الجلد والعظم التي في انفها جذوة الشهيق والزفير . لم ازل حياً ، واتمنى ان ابقى حيا، حتى انهي الحديث عن العملية .. لاول مرة طوال اعتقالي ، افكر بطفولتي .

الاحد في ١٢ تموز ١٩٧٠ .

ساروي باقي العملية :

كان الوقت قد حان ، الليل الثري في الخارج ، ونحن في مواقعنا على النافذتين وراء الاسلحة . كنا ننتظر اشارة البدء من المستنبت ، لكن المستنبت ظل قابعاً في صمته . اشارة ،شعلة مصباح لمدة نصف لحظة ، نصف نصف لحظة ، وتنطفيء ، فننشغل من فوهات بنادقنا الليل . لكن امرا من هذا لم يحصل ،وصارت الساعة تشير الى الثامنة والنصف وثلاث دقائق ، اما الهجوم

المخطط له فمن الواجب ان يثمن حتى الثامنة والربع ، كآخر حد. (كان الرفاق في السجن الذين يهدف لتحريرهم ، قد حدثوني فيما بعد ، عما جرى وقتها في الردهات الرطبة التي تكلح بالنور). اعطى الرئيس امره لاميرة بتبديل ثوبها ، ومن خلف ظهورنا ، وما هي سوى لحظات قليلة ، حتى انتصبت ما بيننا قروية ساذجة تتلألأ من بنات الريف ، الذي كان ينفصها الخال والخلخال ، والوشم على الجبين العال . اسرع فؤاد الى حجرة مجاورة ، واحضر لها جرة ماء فارغة . وقبل ان تذهب ، نبهها الرئيس : « لا تنسي الخروج من الباب الخلفي » . وانغلق الباب .

بعد دقيقتين راينا ظلا ملتفا يقطع الطريق ، ما لبثت ان اوقفته البنادق . كانت الجرة فوق الرأس الوردي كانها برعم ، وكانت اليد التي تضمه تبث في جوعه للحياة نسغ املنا جميعا . وسمعتها في قلبي تقول لهم : انا ذاهبة للعين . ورأيت من خلال غبش الليل ، بجانحي ، ايادي تمتد لتضغطها قرب النهد ، وتلقي بدنسها على وركيها وساقيها . ستكون لهم تسلية لم تكن في الحسبان ، وسيقضون بعض الوقت في مداعبتها بحجة التفتيش . ستحتمل اميرة ، وستعض على شفتها كي تستمد من صبرها الشجاعة . وفي الاخير ، تركوها تعبر ، فصعدت التلة ، واختفت خلف المستنبت .

في اللحظة ذاتها مزقت انتظارنا والصمت ، شحنة من الرصاص. لم يكن المصدر هو المستنبت ، وانما من داخل السجن ، في الردهات . عندها لم يعد لدينا خيار بين ان ننتظر الرفاق في المستنبت كي يبدأوا هجومهم الخلفي ، لنقطع على العدو بدورنا دورته فيكون ساعتها حصاره ، وبين ان ندع العدو يجهز على رفاقنا الذين كسروا قيودهم في الداخل ، ودقوا اعناق الحراس ، واستولوا على بنادقهم . كانت اللحظة هذه قد قررت عنا البدء في الهجوم ، لنفوت على العدو الفرصة . انصبت رشاشاتنا على مواقعه ، وفجرت قنابلنا المصفحة الكبيرة ، و .... التحمنا .

لحظات .. فاذا باشباح تعدو وتقفز متسللة من قضبان البوابة الكبيرة . والرئيس يصرخ بنا ان نشدد الهجمة مرددا :« لقد نفذوا! لقد نفذوا !» وفجاة ، انفتحت نيران الرفاق من شرفات المستنبت . اصبحت لنا قوة ضاربة ، ووجد العدو نفسه محاصرا ، رغم النسف الذي الحقته المصفحات في بنايتنا . تحطم جناحها الايمن ، ثم جناحها الايسر ، وصرنا نتعلق في الهواء . لم نكن نفكر في الموت وقتها ، الذي كان يربض هناك ، الذي كان يلهب عقولنا عشقا ، فقط : الانتصار . وحصل زحف الرفاق الذين في المستنبت ، كانوا ثمانية ، او اكثر ، وكانوا قد فجروا مصفحة ، ورأيت عددا من الجنود يسقطون صرعى ، وانا اطلق باستمرار ، لم اكن اعرف انني على مثل هذه المهارة . ثم انطلقت صيحة مروعة، وكانها اقتلعت فلذة من اغواري . وهوت الصيحة في الدجى ، واختلط سالم والحطام . ومع انشداهي ردتني هذه الصيحات :

ـ اضرب يا موسى ! اقتلهم !

وماذا انا بفاعل بالله عليك ؟ عدت اعزف على قيثارتي للرفاق انشودة حريتهم ، كنا على وشك ان نهزمهم ، وقد خفت طلقات العدو ، واستكانت ، وصارت على وشك ان تستسلم نهائيا . لكننا وجدنا انفسنا بعد وقت قصير محاصرين من جديد ، وقوة ضاربة راحت تدك مواقعنا ، قتلوا الرئيس ، وقتلوا فؤاد ، وانهار على راسي السقف ، وفقدت وعيي .

الاثنين في ١٣ تموز ١٩٧٠.

(على ضوء نحيل تتراقص لالسنة النار المتسللة من نافذة الزنزانة)

استطاع اثر الحادثة ان يفر حتى الحدود : عصمت وسبعة آخرون من الرفاق المعتقلين . قال لي ضابط التحقيق : « انضم رفاقك الذين غدروك الى حركة المقاومة في الاردن ، وما عليك سوى ان تتحمل بنفسك عقابهم جميعا .

رفاقي الذين غدروني ! لماذا غدروني رفاقي ؟ « تركوك تقع بين ايدينا ، وفروا بجلدهم » . يا رفاقي ، يامن تعدون العدة كي تاتوا .. ابعث لكم من قلبي المشتعل : تحية . انني اسمع الخطوات تقترب، وصهيل البنادق . انني اسمع خفقات قلوبكم تهتف بي .. لسوف تاتون ، ولسوف احطم خطوات موتي .. لتاتي الي خطواتكم ، لاغسل روحي بصهيل بنادقكم . يا ايها الرفاق الطيبون .. احضروا لي معكم عروسة ، احضروا لي معكم حرية .

الاربعاء في ١٥ تموز ١٩٧٠.

اليوم لم ياخذوني لحجرة التعذيب ، لكنهم اخذوا رفيقي في الزنزانة . هو واحد ممن احتلوا المستنبت ليلة النور ! كان قد شرح لي الصعاب التي اعترضتهم اثناء الطريق ، عندما صادفتهم دورية من دوريات الحرب في الجبل ، فاضطروا ان ياخذوا طريقا اخر اكثر طولا واكثر وعورة . وقبل ان يصلوا المستنبت بقليل اعترضتهم دورية اخرى ، فاضطروا للتراجع ، وتسلقوا الاشجار ليختفوا بين اغصانها .

واخيرا ، استطاعوا ان يشقوا طريقهم الينا ، ليجدوا المعركة بدأت ، وقد تمكن الرفاق في الحبس ان ينفذوا نتيجة لدعمهم ، ولزخات رصاصهم التي انهمرت من الخلف . وقال لي رفيقي ، ان الدورية الاخيرة التي صادفوها هي التي حاصرتهم في ظهورهم عند اخر لحظة ، وكانت القوة المرابطة في مركز الحاكم العسكري قد تحركت صوبنا من ناحية الغرب ، والقوة التي ترابط قرب معسكر (بلاطة) قد تحركت صوبنا من ناحية الشرق ، وعندئذ شددوا حولنا الخناق .

خطوات تقترب لها اصداء في الرواق الطويل ، سأذهب لاشاهد ، لربما عادوا برفيقي ، اذ هم يستنطقونه في ـ الحجرة المذكورة ـ لكنها اصداء متلاطمة ، اظنهم كثيرين . سألقي نظرة خاطفة ..

لقد اتوا ، اربعة جنود ، يجرون رفيقي معهم .

الخميس في ١٦ تموز ١٩٧٠.

(اخر الليل)

لطمني الضابط في حجرة التعذيب ، وعاد ولطمني . ولم يكفه ذلك ، قبض عليّ من قامتي وادناني حتى الحافة الحديدية للطاولة . كمش بقبضته الوحشية شعري ، وراح يدق انفي ، يدق عيني، يدق صدغي ، حاجبي ، حتى حفر في وجهي شهوته . وعندما افرغ بي غليله ردني الى الوراء، فسقطت على العصعص ، واحسست كسرا قد جرى . كانت اللطخات تلطم عيني ، فمددت يدا شبحية هزيلة ورحت امسحها لارى . اول ما رأيت وجه « الضبع » ، وقد غزاه جيش العرق . قال لي الضابط وهو يلهث :

ـ ما هذه سوى بداية ، اعتبرها اخر فرصة !

واذا بقبضتين جبارتين انتزعتاني من مكاني ، واجبرتاني على الوقوف . وكنت انا قد اوقفت من تمايلي ، لكنني تقوست ، وارتخيت .

ـ انها الفرصة الاخيرة !

وسقطت ، لكني قبل ان اصل الارض ، رفعتني ذراع الجندي الذي يرافقني ، فنبر الضابط في وجهه : ـ دعه يسقط دعه ينسحق !

افلتني فاذا بي حطام انسحقت في الارض ، تئن في صمتها . كان انيني لذته ، يعانق طربا في بطشه ، قبض عليّ من عنقي، وجرني . دفعني على كرسي ، وقيد يدي الاثنتين . كهرباء ! لم تكن هذه المرة الاولى . انتفخت اوداجي متوترة ، وراح الضابط يقهقه . كان سمينا ، له شارب طويل ، وعينان هجيتان . وكان عندما

ولم يترك لي الفرصة على الاعتراف : هذا اذا ما كنت مزمعا ان اعترف . لان مخلبه قد خدش على زر قريب ، فسرى بي تيار مجنون ، ورحت بدوري اصرخ بجنون . توقف لحظة . ثم سرى التيار النذل ، فند عني فحيح ، وغبت عن الوعي . رشات الماء البارد على وجهي ، فتحت عينا ، وبقيت الاخرى مغلقة . حاولت ان افتحها ، لكني لم استطع ، اشد ، لم استطع ، تلمستها ، فاذا بي اجد هناك كهفا دسما ، هو لطخة او مسحوق دهني لدن لبزاق اعمى قد فقروه . اكتشفت هذه الحقيقة رغم انني لا احس بالالم . وانما بهذا الخدر المتوتر : لقد اقتلعوا عيني ! ونزت الدمعات التقية في كل مكان ترش اللطخة عطفها ، ثم راحت تسيل على خدي صامتة ساخنة .

الجمعة في ١٧ تموز ١٩٧٠

عدت الى زنزانتي مع موعد تبديل الحراس ، بعد أن ضمد لي عيني الخاسرة ممرض فلسطيني . كان يعمل هنا قبل الاحتلال بسنوات ، وكنت بحراسة احدهم ، لذلك لم نتبادل الحديث ، لم ننطق بكلمة واحدة . لكني كنت ارى بعيني الوحيدة ، تقاطيع هذا الوجه المنسحق الذي تحصد سيماه النيران . وكنت اسمع حركة المقص الحانقة ، والتي لا تدل على عمل دقيق ومنتظم لرجل مارس مهنة التمريض مدة من الزمن . احسست في اصابعه على وجهي مدا وجزرا للرعشات ، وانا افكر : يحترق عليّ .. المسكين ! وانا ادخل زنزانتي ، كان حارس قد تقدم مني محذرا وهو يقول : « انه معلق حتى الصباح » . ولامس انفي وفعصه . « اياك ثم اياك ان يراودك التفكير في فكه ». كانت عيني الوحيدة قد جحظت ، وانفجرت ، وانتشرت في الهواء كالحراشف . بعدما اوصد الباب ، تقدمت من رفيقي ، كانوا قد علقوه في السقف من قدميه ، وقد مزق سوط مجرم لحم الكتفين ، والظهر وحفر هناك حروقا ، جف بعضها وعمل قشرة دموية ، تتوتر على بعضها كالديدان . اقتربت منه اكثر ما يكون ، ونظرت في عينيه ، كانتا مفتوحتين ، وكان يحدق في رعبه . همست له من سذاجتي : « هل عذبوك ؟ » لكنه لم يجبني ، فرقص في صدري ابليس . ورحت احدق بعيني الوحيدة ، وانا لا اكاد اصدق . ان كل الذي جرى لي لم يكن على مثل هذه الصورة ، تكفي هذه النظرة المهولة لعينين انسانيتين مفعمتين بالصراخ ، والموت . فكرت : مقتول ! الصقت اذني على قلبه ، فسمعته يدق دقا رتيبا . قلت مطمئنا نفسي : لم يزل يعيش ! مددت اصابعي الى عينيه واقفلتهما . جلست على قدم السرير ، ورحت ارنو نحوه .

كم هي الحياة ثمينة ! ان حياة هذا الرجل ثمينة ، والا تراهم لماذا يريدون سلبها ؟ ورحت استمع الى نبضات قلبه الضعيفة وانا افكر : سيموت قبل الاوان . لا .. لن ادعهم يظفرون بحياة مثل هذه ، لن ادعهم . بقيت زمنا طويلا اخاطب نفسي في الليل ، وعلى مرمى ليس بالبعيد خطوات الحارس التي تروح ولا تلبث ان تاتي . يجب ان احفظ له حياته ، ان احفظها له . رفعت رأسي الى فوق ، واستطعت بنصف النظر الذي تركوه لي نصف سليم ، ان ارى المعلق الحديدي الذي بالسقف ، معلق حديدي كانه معلق الجزار . لقد حسبوه نعجة ، وها هم قد سلخوه نصف سلخ ، والباقي اجلوه الى وقت اخر ، عندما يجلخون سكاكينهم من جديد ! نهضت من مكاني ، ورحت احوم من حوله . قاوم ! قاومهم ! يجب ان تعود له حياته ، لان في هذا معنى واحدا ، ان يهزمهم متى استردها . ان يقهرهم ، ان يحوّل نصل السكين الى اعناقهم ، وبحركة من اصابع النور ، سيحز النصل فوق الحنجرة تماما ، فيتنبع امله . لانه لا امل له بعد اليوم سوى أن يصيد الامل بالطريقة ذاتها . آه ! يا آمالنا العظام ، يا جبالنا الراسخة التي تستحم الان في برك الدم ! ايتها الوردات الجبلية ، يا اغراس اهلي ! لا تحزني ايتها الوردات ، انني هنا من اجلك ، من اجل عشق في عيوني نحوك . انني هنا لاحقق امالك . ايتها الوردات الجبلية ...

يا ايتها الوردات الجبلية ! جررت السرير اسفل راسه ، رفعت قدما خائرة وصعدت انتصبت بقدر الامكان ، وبمجهود عظيم رحت افك العقدة ، وما هي سوى لحظات حتى سقط جسد الضحية ، وان انينا طويلا .

الاربعاء في ٢٣ تموز ١٩٧٠

كان القمر يسبح في الصفاء ، وكنت اعشق مثل هذه المنسات الطبيعية . مسحت بضوئه الخصب جروحي ، وتركتها تنساب مع مركبه الفضي .. ولطمني فجاة حبي القديم لاميرة . أين هي اميرة؟ لربما ماتت اميرة ، او هي في زاوية ما مفعمة بالليل والصقيع ، لربما كانت جارتي في الزنزانة .. بل هي معي في زنزانتي . اميرة ... حبي القديم ! استدرت برأسي نحو رفيقي ، كان هناك ، يبحث عن حب قديم ، ويبدو عليه هو الاخر انه وجده . كان جميلا رغم الجروح التي جفت على خديه ، وعلى شفتيه . واخذت جروحه تتحرك – في نظراتي – رويداً ، رويدا ، وتدب في قشرتها الميتة حياة اخرى فريدة . رأيته يرفع ساقا ويحطمها فوق السرير .. ووجدت نفسي اقول له : « انني افكر بالحب ، وانت ؟ » هز لي راسه . قلت له « اتدري ؟ اننا اذا احببنا نموت حبا ، لاننا لم نخلق سوى لهذا ، لان نحب » . وهز لي رأسه . قلت له : « انني انا احببت حبيبتي عمرا طويلا ، ولم اقل لها احبك . ان حبنا مستحيل ، اليس كذلك ؟ » فهز لي راسه . قلت له مؤكدا : « ان حبنا مستحيل ، مستحيل ، لان حبنا ليس كمثله حب ، ولان حبنا من عطاء الارض ، ينمو في العروق ، ويرسخ في القلب ، ولا حاجة لتقوله الكلمات » . وهز لي رأسه . قلت له : « لقد كانت حبيبتي معي ، حتى اخر لحظة ، وها هي الان معي ، واذا ما افترقنا ، فنحن دوما نلتقي ، نلتقي هنا ، بالجوارح ، بالجوارح » . وراحت دمعة رفيقي تسيل ، فتح فمه في الاخير وقال لي : « لقد احببت ، لقد احببت اكثر من مرة ، ولكني ما احببت مرة وقلت فيها احبك . مثلك تماما ، تماما . وفي آخر مرة ، وقبل ان يعتقلوني ، جاءني صوت يقول : احبك ! وكانه صوت الخبز والوطن ، وكانه صوت الفاس القوي ، عندها ، افرغت رصاصي في صدر عدوي » .

باريس

صدر حديثا عن دار الطليعة
في سلسلة « المفكر العربي »
اللاعقلانية في السياسة
نقد السياسات العربية في المرحلة ما بعد الناصرية
ياسين الحافظ

السياسة هي فن تحريك الاشياء والبشر . واذا تأملنا ضخامة ما لدى العرب من اشياء وبشر ، وفي نفس الوقت العجز عن تحريك هذه الاشياء وهؤلاء البشر لصالح الامة العربية ، يتضح لدينا التأخر الذي يسم السياسات العربية ، تأخر تتكشف صورته المأساوية والمذهلة اذا تذكرنا قزامة العدو الاسرائيلي . وهذا الكتاب محاولة لالقاء الضوء على مأزق السياسة العربية في هذه المرحلة ، ولالتقاط بعض تظاهرات التأخر في البنية السياسية العربية ، ولوضع بعض صور لرؤية صاحية على الصعيد السياسي .